

المكانة العلمية لبيت أبي عبد الله الشريف التلمساني في الغرب الإسلامي
من خلال مخطوط " مجموع فيه مناقب سيدي أبي عبد الله الشريف وولديه سيدي عبد الله الغريق والولي الصالح سيدي
أبي يحيى عبد الرحمن " لأحمد بن أبي يحيى عبد الرحمن ت 895هـ
(قراءة و تحقيق)

د. الطاهر بونابي قسم التاريخ-جامعة المسيلة- الجزائر.

مقدمة:

يعتبر مخطوط مناقب أبي عبد الله الشريف وولديه عبد الله الغريق و أبي يحيى عبد الرحمن لمؤلفه أحمد بن أبي يحيى ت 895هـ، من النصوص المناقبية التي تندرج ضمن صنف مناقب العلماء ، أرخ فيه مؤلفه للمسيرة العلمية والدينية و الروحية لجدّه أبي عبد الله الشريف (710-771هـ) و عمه عبد الله الغريق (748-792هـ) ووالده أبي يحيى عبد الرحمن (757-826هـ) ، و تكمن أهميته في كونه تتبع نشاط و إنجازات كل واحد من هؤلاء العلماء ضمن سياق من الحياة الدينية و العلمية و الثقافية و السياسية في بيئات تلمسان و تونس و فاس و غرناطة خلال العهد الزياني و الحفصي و المريني و النصري بين 710هـ و 826هـ ، كما أنه يجسد شبكة العلماء المتقين في المغرب الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري إلى مدرسة محمد بن إبراهيم الآبلي ت757هـ و الذين صاروا يشتركون في الانتماء إلى الأبوة الآبلية كرابطة علمية و معنوية ضمت جناح المتكلمين الأصوليين⁽¹⁾ و الذين اهتم صاحب المخطوط برصد نصوصهم الكلامية و مباحثهم المنطقية و الفقهية مما يساعد على قراءة جانب من المنحى الكلامي و الأصولي للمدرسة الآبلية ، ثم إن نصوص هذا المخطوط قد وردت ثقيلة المحمّولة و متعددة الموضوعات بين دينية و فكرية و ثقافية و اجتماعية و سياسية و اقتصادية ، مما جعلني أقصر على محاولة قراءة المكانة العلمية لبيت أبي عبد الله الشريف العلوي التلمساني⁽²⁾ متوخيا التوثيق و التحقيق ، نظرا لعدد الإشكاليات المطروحة حول هذا المخطوط من حيث بنيته و نسبته و مضمونه .

1-بيانات المخطوط وبنيته:

صار المخطوط الموسوم بـمجموع فيه مناقب أبي عبد الله الشريف وولديه سيدي عبد الله الغريق والولي الصالح سيدي أبي يحيى عبد الرحمن لمؤلفه أحمد بن أبي يحيى عبد الرحمن ت 895هـ، مخطوطا كامل البنية بعد ظهور نسختين منه الأولى تعود ملكيتها لمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء بالملكة المغربية وهي بعنوان : "مناقب أبي عبد الله الشريف وولديه عبد الله الغريق و أبي يحيى عبد الرحمن" . وخطها مغربي واضح و عدد أوراقها 77 ورقة و مكتوبة بخط مغربي جميل وتتألف من عشر- أبواب غير أنه وبداية من الورقة 50، يوجد بتر من تمام الباب السابع إلى تمام الباب التاسع⁽³⁾ أما النسخة الثانية فهي ضمن مجموع بمكتبة المسجد النبوي بالمدينة و عنوانها "القول المنيف في ترجمة الإمام أبي عبد الله الشريف وولديه" ، ومنسوب لأحمد بن يحيى الونشريسي ت 914هـ و عدد أوراقها 82 ورقة و مكتوبة بخط مغربي واضح وتتألف من عشر أبواب غير أنها كذلك منقوصة المقدمة⁽⁴⁾.

وبعد فحصي للنسختين والمقارنة بين نصوصهما تبين لي أنها متطابقتان و قمت بإكمال البتر الموجود في نسخة مؤسسة آل سعود من نسخة الحرم النبوي فتحصلت بذلك على نسخة كاملة للقراءة .
بدايتها: "الحمد لله الذي جعل العلماء ورثة الأنبياء و قدوة أوليائه و أصفياؤه".
ونهايتها: "وختم علي و عليكم بالحسنى إنه المنعم الوهاب و صلى الله على سيدنا محمد و على آله".

(¹) تكرر في ضمن نصوص المخطوط عبارات و مصطلحات (القراءة العلمية و الأخوة في التلمذة للمشيخة الآبلية) .أحمد بن أبي يحيى : مجموع فيه مناقب أبي عبد الله الشريف العلوي وولديه أبو عبد الله الغريق و أبي يحيى عبد الرحمن ، مخطوط مؤسسة عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية و العلوم الإنسانية ، الدار البيضاء ، المملكة المغربية رقم 314، ورقة 21.

(²) حسب عبد الرحمن بن خلدون فإن أبا عبد الله محمد الشريف يعرف بالعلوي نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان تسمى العلويين . رحلته غربا و شرقا، تحقيق ، محمد بن تاويت الطنجي، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، 2003، ص 105.

(³) تحمل نسخة مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية و العلوم الإنسانية ، الدار البيضاء المملكة المغربية رقم 314.

(⁴) رقمها بمكتبة الحرم النبوي ، 3/80113 حافد .

وبآخر النسختين هناك إضافة كتبها عبد الله بن أبي عبد الله محمد الحسني وهي في مناقب السلطان أبي زيان محمد بن أبي حمو موسى الثاني 796هـ-801هـ و صلته بشيخه أبي يحيى عبد الرحمن والأعمال التي قام بها في افتداء الأسرى من الأندلسيين والشرفاء بسواحل وهران ومستغانم ودلس، وكذلك سياسته في تشييد المساجد وتحرير مخازن بلده ورفع الوظائف والتكاليف، وفيه إشادة واضحة من جانب محمد الحسني بالسلطان أبي زيان محمد⁽¹⁾

وبداية هذه الإضافة "وكتب الفقير إلى الله عبد الله بن أبي عبد الله محمد الحسني لطف الله به " ونهايته: "والصلاة والسلام على النبي كما هو أهله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم".

وفي نهاية نص مخطوط مؤسسة عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء هناك إشارة إلى الناسخ في قوله: "كمل التأليف المبارك نفعا لله بهم وأفاض علينا من بركاته وحشرنا في زمريهم على يد العبد الفقير إلى رحمة مولاه الراجي عمن سواه محمد بن أبي يحيى بن محمد الحسني لطف الله به في الدارين وإنه سميع مجيب"

ومن خلال ذلك يتضح أن كلاً من صاحب الإضافة والناسخ هما من الأشراف الحسنيين كما أنها فيما يبدو قريبان من بيت أبي عبد الله الشريف العلوي ولعل الناسخ هو ابن صاحب الإضافة، الذي يظهر كذلك كأن له صلة بالسلطان أبي زيان محمد وقريب من بيت أبي عبد الله الشريف وولديه⁽²⁾. ونظراً لوضوح نسخة مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود بالدار البيضاء فقد اعتمدها في دراسة موضوع المقال وما نقص منها استمدته من نسخة المسجد النبوي بالمدينة. وتتم فصل بنية المخطوط إلى مقدمة وعشر- أبواب، تتعلق الأبواب التسعة بأبي عبد الله الشريف 710هـ-771هـ، وينض الباب العاشر بولديه أبي محمد عبد الله الشهير بالغريق 748هـ-792هـ وأبي يحيى عبد الرحمن 757هـ-826هـ.

ومحتوياته فيما يلي:

مقدمة المخطوط

الباب الأول: في نسبه ونشأته ومولده .

الباب الثاني : في طلبه العلم واجتهاده وشيوخه وثناء العلماء عليه .

الباب الثالث في: خلقه وحُلقه وهيبته وسيرته .

الباب الرابع في: علومه و تواليفه وفوائد من أجوبته .

الباب الخامس في: محابته وحفظه منصب العلم وعلو رتبته .

الباب السادس في: زهده وتدينه ومروءته وأمانته .

الباب السابع في: تمسكه بكتاب الله وسنة رسوله .

الباب الثامن: في ما اختصه الله به من الكرامات التي لا تدخل تحت الاكتساب .

الباب التاسع : في وفاته و مرأى زئبته له في حياته وبعد موته .

الباب العاشر في: ذكر خلقه وذريته وما جنى من غرس ثمره .

2- السيرة الذاتية لمؤلف المخطوط:

ينتمي مؤلف المخطوط إلى أحد أعرق البيوتات التلمسانية شرفاً وأشهرها علماً، فهو أبو العباس أحمد بن أبي يحيى بن محمد بن أحمد بن علي بن يحيى بن القاسم ابن المحمود بن ميمون بن علي بن عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي رضي الله عنه

(1) أحمد بن أبي يحيى: مجموع فيه مناقب أبي عبد الله الشريف وولديه سيدي عبد الله الغريق والولي الصالح أبي يحيى عبد الرحمن، ورقة 75-78، أحمد بن يحيى الوثريسي: القول المنيف في التعريف بالإمام عبد الله الشريف، مكتبة الحرم النبوي، ص 182، 181.

(2) نسخة مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، ورقة 77.

(1) نزل بيتهم إلى تلمسان في أعقاب سقوط دولة الحموديين الشرفاء بالأندلس، واستوطنوها "فكان لهم بها المنزل المتيف والقدر الشريف يرثون الجلالة كبيرا عن كبر ويتبرزون في صدور المنابر" (2).

ولا نملك حول سيرته وتكوينه العلمي وشيوخه سوى معطيات تحصى في علاقته بشيوخ أسرته ذكرها في ثنايا نص المخطوط، فقد أدرك جده محمد أبي عبد الله الشريف 710هـ-771هـ، وهو لا يزال في حداثة سنه وسجل، حول هذه الفترة، يقول فيها: "على أي أدركت الشيخ وبشرته ورأيت وجهه السعيد وعرفته وحضرت مجلسه صغيرا وسمعته، وإن الخيال لحافظ لشكله والعقل ثابت لما يميز من فضله" (3). كما كان ملازما لعمه أبي محمد عبد الله الغريق 748هـ-792هـ، ووالده أبي يحيى عبد الرحمن 757هـ-826هـ وكثير الحضور إلى مجالس مذاكراتهم ومحاوراتهم (4)، فقرأ على عمه مدة ثلاث عشرة سنة، وخبر سيرته ولازم والده إلى غاية وفاته سنة 826هـ.

ويظهر من أسلوب إطرائه لأمره بني زيان أنه عاصر فترات حكم كل من أبي تاشفين الثاني، عبد الرحمن ابن أبي حمو الثاني 791-795هـ/1389-1392م، وأبي ثابت يوسف بن أبي تاشفين الثاني 795هـ-799هـ/1392م-1393م، وأبي الحجاج يوسف بن أبي حمو الثاني 796هـ-797هـ/1393م-1394م، فضلا على صلته بالسلطان أبي زيان محمد بن أبي حمو 797هـ-801هـ/1394م-1399م تلميذ والده أبي يحيى، فقد كان من المقربين إلى البلاط الزياني ومن الأوفياء له، مثل جده وعمه ووالده، فقد اعتبر استجابته لطلب السلطان أبي زيان محمد في الكتابة حول شيخه أبي يحيى عبد الرحمن بن محمد الشريف، من الوفاء بحق النعمة التي وهبها هذا السلطان لبيت جده أبي عبد الله محمد الشريف في قوله: "فابتدرت لمراده..وفاء بحق نعمته ورجاء في عرفان شيخ أشياخي وبركته" (5).

ومن هنا عاش عن قرب أطراف وهبات السلطان أبي زيان محمد على أسرته بعد وفاة جده أبي عبد الله محمد الشريف ت 771هـ. وسجل لنا في مخطوطه مشاهدتها في قوله: "و لما بلغ السلطان أعزه الله موته عظم عليه ذلك وتأسف وبعث إلى ولده الفقيه أبي محمد عبد الله الغريق...ثم أعطاه المدرسة وأمره بالجلوس في مجلس أبيه ورتب لبنينه كلما كان للشيخ رحمه الله من المرتبات والمداشر والأجنة والحارث والبحاير وقسمه عليهم، وأنه بأيديهم إلى يومنا هذا...وانه لمن أحسن الناس عهدا في مراعاتهم وأكملهم فضلا في اعتقادهم وموالاتهم" (6).

وإذا كان نص المخطوط وفر لنا الشارد القليل من المعلومات حول السيرة الذاتية للمؤلف، فإن مدونة التراجم والفهارس التلمسانية المغربية وردت مقتضبة في الموضوع ولا تف بالغرض، فقد وصفه محمد بن محمد بن مريم (كان حيا 1025هـ/1611م) بالعالم العلامة المحقق المفسر، وذكر من شيوخه ابن مرزوق الحفيد ت 842هـ و ذكر ما جرى بينها من نقاش في "مسألة المتيم يدخل في الصلاة ثم يطلع عليه رجل بالماء"، وهي المسألة التي أورد ذكرها كذلك الونشريسي- في معياره ت 914هـ (7) غير أن أحمد بابا التنبكتي ت 1036هـ انفرد برواية مفادها أن المؤلف كان قاضيا للجماعة بغرناطة (8).

أما حول تاريخ وفاته فقد أخذ أحمد بن القاضي ت 960هـ (9) برأي أحمد بن أحمد الونشريسي- ت 914هـ، في اعتبار سنة 895هـ تاريخا لوفاته (10)، مما يعني أن المؤلف من وقت إدراكه لزمان جده أبي عبد الله محمد الشريف ت 771هـ صبيا إلى تمام 895هـ، يكون قد عمر أكثر من 124 عاما حسب رواية الونشريسي-، التي أخذ بها التنبكتي متحفظا في قوله: "ولم أقف على وفاته، ثم رأيت في وفيات الونشريسي (11) .

(1) أحمد بن أبي يحيى عبد الرحمن: المجموع، ورقة 4.

(2) نفسه: ورقة 5.

(3) نفسه: ورقة 51.

(4) نفسه: ورقة 51، 115.

(5) المجموع: ورقة 3.

(6) نفسه: ورقة 50.

(7) البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، نشر محمد بن شنب، تقديم: عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 44.

(8) نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ج1، تحقيق: علي عمر، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004، ص 128.

(9) لقط الفراند من لفاضة حلق الفوائد، تحقيق: محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والنشر، الرباط، 1976، ص 251.

(10) وفيات الونشريسي، تحقيق: محمد حجي، دار المغرب للتأليف والنشر، 1976، ص 152.

(11) نيل الابتهاج، ج1، ص 128.

3-نسبة المخطوط إلى أحمد بن أبي يحيى عبد الرحمن ت 895هـ:

لم يقر أصحاب المدونات التاريخية المغربية في كتب التراجم والفهارس بنسبة المخطوط لصاحبه أحمد بن أبي يحيى، سواء أكان ذلك عن طريق المعاصرين للمؤلف، أم من طرف الذين ترجموا له في القرنين 10 و 11 الهجريين /16 و 17 الميلاديين، حيث وقفنا على إشارتين تتعلق بالمخطوط، لكن دون ذكر لاسم المؤلف، فابن مريم الذي انتهى من تأليف كتابه: "البيستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان" سنة 1011هـ، ذكر أثناء ترجمته لأبي عبد الله محمد الشريف (الجد) أنه وقف "على جزء لبعض التلمسانيين عرف صاحبه بالشريف وولديه فلخصته في جزء سميته القول المنيف في ترجمة الإمام أبي عبد الله الشريف" ولدى فحص ما ورد عند ابن مريم في التعريف بأبي عبد الله الشريف وبما ورد في المخطوط تبين أن نصه يتقاطع حرفيا مع العبارات الواردة في المخطوط⁽¹⁾. ويبدو أن الجزء الذي وقف عليه ابن مريم، عثر عليه قبله أحمد بابا التنبكتي 1036هـ/1631م، يعكس ذلك شهادته في قوله: "ثم وقفت على جزء لبعضهم في كراريس عرف به -أي بالإمام أبي عبد الله محمد الشريف وولديه"⁽²⁾ واتخذ من نصه العمدة في رواية تفاصيل سيرة الإمام وولديه.

ويبدو أن أحمد بن يحيى الونشريسي ت 914هـ قد سبقها إلى الاستفادة من هذا المخطوط، حيث أتى على نقل كل إشكالات المنطق والأستئلة الكلامية والنوازل الفقهية التي طرحت على أبي عبد الله محمد الشريف التلمساني من طرف علماء إفريقية و الأندلس و تلمسان ، وعدد صفحاتها التي تقاطعت مع نص المعيار تقاطعا حرفيا دون زيادة أو نقصان هي في 50 ورقة تقريبا، مع العلم أن نص المخطوط ورد في 77 ورقة كما أسلفنا.

وهي كالتالي:

اشكالات المنطق والأستئلة الكلامية والنوازل الفقهية التي طرحت على أبي عبد الله الشريف العلوي وولده أبي يحيى عبد الرحمن	النص في المخطوط) نسخة مركز الملك آل سعود الدار البيضاء)	النص في معيار الونشريسي
اشكالات وأستئلة أبي زكريا يحيى الرهوني وأجوبة الشريف التلمساني	ورقة 21-26.	ج 12، ص ص 163-170.
سؤال السلطان أبي حمو موسى الزباني حول حديث ((حُبب الي من دنياكم))، وجواب الشريف التلمساني	ورقة 12-44.	ج 12، ص ص 170-176.
الأستئلة الفقهية من أبي سعيد فرح بن لب الغرناطي وأجوبة الشريف التلمساني (أطلقنا عليها الأستئلة الغرناطية والأجوبة التلمسانية)	ورقة 29-32.	ج 2، ص ص 47-50.
سؤال لم يرد ذكر صاحبه حول المقلد والمجتهد في الدين والمذهب، واجابة الشريف العلوي.	ورقة 32-37	ج 11، ص ص 364-370.
نازلة تتعلق بثبوت الشرف من جهة الأم، واجابة الشريف العلوي	ورقة 44-49	ج 12، ص ص 211-218
سؤال في علم الكلام ورد من بجاية، وجواب الشريف العلوي عليه	ورقة 56-58	ج 12، ص ص 233-236.
سؤال حول معنى الآية ((ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر)) موجه إلى أبي يحيى عبد الرحمن، وجوابه على ذلك.	ورقة 63-74	ج 12، ص ص 240-254.

فهل أن هذا التقاطع الحرفي يقوي من فرضية أن نص المخطوط الذي يتوفر عليه كل من مركز الملك آل سعود بالدار البيضاء بالمغرب ومكتبة الحرم النبوي هو من تليخيص أحمد بن يحيى الونشريسي ت 914هـ، كما هو منسوب إليه في نسخة مكتبة الحرم النبوي؟
لا ريب في أن هذا التقاطع يحيلنا إلى طريقة أحمد بن يحيى الونشريسي ت 914هـ في نقل النصوص من مضاها الأصلية إلى المعيار الذي يعد إلى جانب كونه مدونة نوازلية يمتاز ، هو كذلك بجميع لعديد المصنفات بكاملها ، وهي طريقة اختص بها الونشريسي- ، ثم لماذا

(1)البيستان، ص ص 166-183.

(2)كتابة المحتاج لمعرفة من ليس في الدياج، تحقيق أبو يحيى عبد الرحمن الكندري ، ط1، دار ابن حزم للطباعة و النشر، لبنان، 2002، ص 332.

نسب المخطوط إلى الونشريسي ، ألا يعد ذلك من أخطاء الناسخ ، مع أن ابن مريم هو من لخصه ، كما أن عنوان نسخة الحرم المدني أي "القول المنيف في ترجمة الإمام أبي عبد الله الشريف " هو ذات العنوان الذي وضعه ابن مريم للملخص كما صرح بذلك و سبق ذكره ، و من هذه المعطيات الأولية تبين لنا أن كلا من نسخة مركز الملك آل سعود و نسخة الحرم المدني هما النسخة المختصرة عن المخطوط الأصلي الذي أشار إليه صاحبه أحمد بن يحيى ملمحا إلى حجمه وعنوانه الموسوم بـ "الديوان" في قوله: ((فجمعت من ذلك دررا تشهد النفوس بنفاستها، وغررا تذكرها القلوب بحاستها، ونظمتها علماً نقيسا في لبة الزمان، وجلوته عروسا في منصة هذا الديوان))⁽¹⁾ ، وكذلك ذكر أحمد بابا التنبكتي ت 1036هـ أنه وجد هذا الديوان كذلك في جزء على هيئة كراريس مما يعني أن بنية النص الأصلي للمخطوط هي في ديوان و كراريس و هما شكل مختلف عن المختصر ، ناهيك على إشارة أخرى تدل على أن ابن مريم قد استلهم عنوان ملخصه من مضمون النص الأصلي، من خلال توظيفه لكلمة " المنيف " -والتي تعني المشرف على غيره و هي من ناف أي ارتفع و أشرف -، و ذلك في سياق قول أحمد بن يحيى ت 895هـ "فزلوا تلمسان واستوطنوها فكان لهم المنزل المنيف والقدر الشريف، يرثون الجلالة كبرا عن كابر"⁽²⁾.

واعتبارا من هذه المقاربة فإن عنوان المخطوط الأصلي قد يكون "الديوان" أو "المنزل المنيف والقدر الشريف في التعريف بأبي عبد الله الشريف وولديه" ، مما يعني كذلك أن ابن مريم يكون قد احتفظ بالعنوان كما وجده في الأصل و أن كلا من نسخة مركز الملك آل سعود و نسخة الحرم المدني هما نسخة من تلخيص ابن مريم المديوني على لسان أحمد بن عبد الرحمن بن أبي يحيى ت 895هـ صاحب النص الأصلي .

4-طبيعة المخطوط:

يندرج المخطوط ضمن صنف مخطوطات الأدب المناقب كما صرح مؤلفه أحمد بن عبد الرحمن بن يحيى ت 895هـ في قوله: "ورببت الكتاب في عشر أبواب تضمنت جملة صالحة من المناقب والآداب"⁽³⁾.

وإذا كان الأدب المناقب يتضمن عديد الأجناس من النصوص بين نص مناقب الصوفية ونص مناقب الفقهاء ونص المناقب السلطانية، فإن موضوع المخطوط جاء في "مناقب العلماء" واختص بالتعريف بثلاثة من العلماء ينحدرون اجتماعيا من أحد البيوتات بتلمسان وينتسبون إلى سلالة الشرفاء الأدارسة وينتمون علميا إلى المدرسة الأبلية نسبة لشيخها محمد بن إبراهيم الأبلي ت 757هـ، وهم: أبو عبد الله محمد الشريف ت 710-771هـ ، وولده عبد الله الغريق 748-792هـ ، وأبو يحيى عبد الرحمن 757-826هـ.

ويتميز نص مخطوط مناقب العلماء عن غيره كونه، لا يتبع وصف البنية الجسدية والمأكّل والمشرب واللباس والركوب ومجمل العلاقات الاجتماعية كما هو الحال في نصوص المناقب الصوفية والمناقب السلطانية وإنما جوهر تناوله ينصب في استعراض إلتناهم العلمي ومنزلتهم. في الوسط العلمي والفكري والثقافي وامتداداتهم في وسط الطلبة والمهتمين بالمعرفة ومجمل أشكال المناقبة العلمية بينهم وبين أقرانهم من علماء تلمسان وإفريقية والمغرب والأندلس ومجالس علمهم بالمدارس والمساجد في بلاط السلطان، كما يحتفي أيضا بجوانب من التاريخ الإستمولوجي للعلوم، من خلال ما يتوفر عليه من نصوص علمية هي في شكل أسئلة وأجوبة في حقول المنطق وعلم الكلام والفقهاء المالكي وعلم اللغة طرحت على هؤلاء العلماء وبالتالي تتيح نصوصها التأريخ للعلوم من زوايا المفاهيم، تسعى هذه القراءة إلى توضيح جوانبها .

غير أن نقطة تقاطع نص مناقب العلماء مع نصوص مناقب الصوفية والمناقب السلطانية ومناقب الفقهاء في العهد الزياني يكمن في الصلة بالسلطان، فقد بات معروفا بل ومن التقاليد السلطانية أن صار كل سلطان خلف تأليف مصنف في المناقب، أضف إلى ذلك أن نص مناقب العلماء ينطوي على المضمهر غير المصرح به والذي يروم مؤلفه في العادة تكريسه وتحقيقه لفائدة السيرة الذاتية للبيت العلمي الذي ينتمي إليه وفي المحافظة على المكاسب والهبات السلطانية، وهذه الوظيفة اضطلع بها المؤلف أحمد بن يحيى في تجسيده لفكرة الإلتاء إلى بيت الشريف العلوي و إلى شريحة الشرفاء.

(1)المجموع: ورقة 3.

(2)المجموع: ورقة 5.

(3)المجموع: ورقة 4.

5- منهج المؤلف و أسلوبه في الكتاب المناقبية:

يعكس نص المخطوط طبيعة الثقافة العالمة التي يمتلكها أحمد بن أبي يحيى ت 895هـ فقد وضع النص المناقبية في سياق من الوقائع والأحداث والنشاط العلمي والديني بعيدا عن ظاهرة الخرافة والكرامات التي اعتدناها لصيقة بنص المناقب الصوفية والسلطانية، كلما تعلق الأمر بشيوخ وسلاطين الدولة الزيانية، وهذا يدل على تأثره بمسار جده أبي عبد الله محمد الشريف وعمه عبد الله الغريق ووالده أبي يحيى عبد الرحمن في الالتقاء إلى المدرسة الأبلية التي جمع روادها بين العلوم الشرعية المتمثلة في أصول الدين وأصول الفقه والتعاليم أي الرياضيات والمنطق والطبيعات كالطب والفلاحة والإلهيات - ما وراء الطبيعة - وهي كذلك المدرسة التي تنحل من أفكار أبي الوليد ابن رشد الحفيد ت 1198/545م والفلسفة اليونانية وبالتالي تعطي العقل مكانة كبيرة في الحقلين الديني والاجتماعي ما جعل المفكر الجزائري عبد الحميد أمزيان يصفها "الرشدية الجديدة"⁽¹⁾.

وهذا ما يفسر عدم إسهاب مؤلف المخطوط في سرد الكرامات، كما أن خطابه ورد خاليا من الخرافة

ومن هنا صرح في ثنايا مخطوطه عن منهجه في التأليف المتكون من:

أ- الطابع الأدبي: الذي تناول في ضمنه التعريف بشيوخ أسرته، وقد وصفه في قوله: "فجمعت من ذلك دررًا تشهد النفوس بنفاستها و غررا تذكرها القلوب بحاستها، ونظمتها علقًا نفسيًا في لبة الزمان وجلوته عروسًا في منصة هذا الديوان و رصعته من فوائده كلامه و عجائب من غرائب فتاويه وأحكامه لتكمل به الفائدة... وتكون رتبته من الفضل شاهدي"⁽²⁾.

ومن هنا كان الديوان أو المجموع ، لفظ مناسب لبنية ومضمون النص ، فالجميع عادة ما تتميز في مضمونها بالثقافة العلمية والدينية الواسعة من عقائد و أصول وتوحيد ومناقب وفقه وتصوف وطبيعات وإلهيات، فضلا على رصدها للمظاهر السياسية والعسكرية والاجتماعية في قالب من البيبلوغرافيا الواسعة، رغبة في التأصيل والإقناع، لذلك لا عجب أن أطلقت النخبة الكاتبة والعالمة في تلمسان على أعمالها المناقبية اسم "المجاميع" أو "الدواوين" مثل ابن مرزوق الخطيب ت 771هـ في مجموعته أو ديوانه حول " مناقب أسرة المرازقة" وابن سعد التلمساني ت 910هـ في عمله الموسوم ب"النجم الثاقب" ، وبالتالي فإن تسمية هذه المجاميع بالكتب المناقبية هو إقصاء من قيمة مضمونها المعرفية والتاريخية المتنوعة⁽³⁾.

ب- التوثيق من الروايات الشفوية: شكلت الزوايا الشفوية المصدر الأساس بالنسبة للمؤلف في إنجاز هذا المخطوط وفي مقدمتها روايات والده أبي يحيى عبد الرحمن في التعريف بوالده محمد الشريف، وفي ذلك يقول: "لم أستق من كثير من تلامذته وآثاره، وإنما اقتصر على ما سمعت من أبي حفظه الله، وذلك لأنه صاحبه كبيرا و مازحه صغيرا وكبيرا، و حفظ من أقواله وأفعاله وعجائب أحواله ما لا يوجد عند أمثاله"⁽⁴⁾.

فضلا على اعتماده على بعض روايات شيوخ تلمسان وهم يعدون على الأصابع مثل :

- روايات الشيخ أبي يحيى المطغري التي استدل بها في ثلاثة مواضع من المخطوط في صيغة: "سمعت من شيخنا أبي يحيى المطغري"⁽⁵⁾ وروايات الفقيه المحدث منصور بن هدية القرشي، وروايات عمه أبي محمد عبد الله الغريق عن طريق أبي الحسن علي المغربي و أبي العباس أحمد البجائي⁽⁶⁾، كما استخدم أيضا ألفاظ حدثني بعض أشياخي، وحدثني من أتق به⁽⁷⁾.

ج- اعتماده على أسلوب الاختصار في سرد الروايات، يعكس قوله: "فاقتضبت من أخباره ما حضره عندما سألته وما أملاه علي عندما عرفته... وإنما أتيت بنبذة تكفي اللبيب عن استقصاء الغاية"⁽¹⁾، ويبدو أن ذلك كان عن قصد لأسباب صرح بها وتتعلق ب:

⁽¹⁾ -مدرسة الآبلي وانتشار الرشدية الجديدة، بالمغرب والأندلس، (مشروع قراءة جديدة لفلسفة ابن رشد)، في أعمال التراث الحضاري بين إسبانيا والمغرب، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، المغرب، 1972، ص 92.

⁽²⁾ -المجموع: ورقة 7.

⁽³⁾ الطاهر بونابي: الحركة الصوفية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، الجزائر، 2008، 2009، هامش، ص ص 674، 675.

⁽⁴⁾ -حول هذه الروايات أنظر المجموع: ورقة: 5، 6، 7، 10، 27، 39، 51.

⁽⁵⁾ -نفسه، ورقة 10، 62.

⁽⁶⁾ -نفسه، ورقة 10، 55، 54.

⁽⁷⁾ -نفسه، ورقة 5، 8، 73.

حجته في أن أخبار جده ووالده وعمه "أشهر من أن تشهر، وأعرف عند الناس من أن تذكر، ومن حاول تعريف المعرف، وتشريف الماجد المشرف، فيجد أن يعود بالتقصير ويرجع بصره على نور الشمس خاصيا حسيرا"⁽²⁾، فضلا على حالته النفسية لحظة الكتابة فقد كان فيما يبدو قلقا غير مستقر، وصرح بذلك "هذا ما حضرنى... مع شدة الاستعجال وذهول العقل و شغل البال"⁽³⁾.

6-دوافع تأليف المخطوط :

ألف أحمد بن أبي يحيى عبد الرحمن ت 895هـ مجموعه بطلب من ولي نعمته السلطان أبي زيان محمد 796-801هـ، الذي كانت له محبة في بيت الشريف العلوي، فضلا على كونه تلميذا لأبي يحيى عبد الرحمن فقد تحصل له ما تحصل من حبّ هذا البيت الشريف وراء له من كمال الفضل في الفرع والأصل القدر المنيّف وعلم ما لأبوة شيخه -أبي يحيى عبد الرحمن- من الجلالة التي يقصر عنها التعريف طمحت نفسه العلية إلى التعريف بمنافهم وتخليد شمائلهم الكريمة ومذاهمهم، ليطلع على كنه مشيخته ويعلم أسانيد روايته وسبل سيرتهم فيجعلها أس سيرته"⁽⁴⁾.

وإذا كان هذا مراد السلطان أبو زيان محمد، فإن أحمد بن أبي يحيى مؤلف المخطوط قد أبطن في ثنايا المخطوط دوافعه الخاصة التي تظهر من قوله: "ورجاء في عرفان شيخ أشياخي وبركته"⁽⁵⁾، أضف إلى ذلك أنه جعل من المناسبة فرصة أظهر فيها العلاقة الوثيقة التي كانت تجمع بين البيت الزياني الحاكم وشيوخ أسرته منذ عهد السلطان أبي سمو موسى الثاني 760-791هـ، فقد ذكر بما لهذا السلطان من علاقة حميمة بجده أبي عبد الله الشريف العلوي⁽⁶⁾ وكذلك ما لأبيه أبي يحيى عبد الرحمن من الفضل على السلطان أبي زيان محمد.

7-ملاحظات حول بنية المخطوط ومضمونه:

عرف المؤلف بجده أبي عبد الله محمد الشريف 710-771هـ، في تسعة أبواب وخصص الباب العاشر في التعريف بعمه أبي محمد عبد الله الغريق 748-798هـ، وبوالده أبي يحيى عبد الرحمن 757-826هـ، ولعلّ المؤلف أراد أن يعطي بيت أجداده العلماء الأشراف وزنا ثقيلًا حينما ركز على جده أبي عبد الله محمد الشريف، إذ لم تشهد تلمسان والمغرب الأوسط عقب وفاة محمد بن إبراهيم الأبلي ت 757هـ شخصية علمية نظيرة له مثل أبي عبد الله الشريف وريث المدرسة الأبلية، لذلك تناول حفيده سيرته الذاتية والعلمية والسياسية بدقة مفصلة تندر معطياتها الثمينة في المصادر الزيانية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين.

ورغم أنّه جعل الباب الأول في نسب جده ومولده إلا أنّه انعطف إلى سرد مناقبه وتفصيل تتعلق بمحلة صباه وقراءته الأولى والمناخ العلمي الأول الذي استنشقه بتلمسان وشذى به، فربط نسبه بأدارة فاس العلويين والحموديين بالأندلس⁽⁷⁾، غير أنّه لم يتتبع تفصيل حضور هذا البيت في تاريخ الأدارة بفاس، والحموديين بالأندلس واختصر- المشهد في عودتهم إلى المغرب خلال القرن الخامس الهجري 11م ونزولهم بتلمسان بعد سقوط دولة الموحدين و التي كانت بالنسبة لهم "المنزل المنيّف والقدر الشريف، يرثون الجلالة كبرا عن كبر ويتبزون في صدور المنابر، حتّى طلع صدرهم وحرهم وبحرهم أبو عبد الله"⁽⁸⁾، وكان قصد المؤلف ربط هذا البيت بالأدارة الحموديين وتأكيد نسبهم الشريف إلى آل البيت⁽⁹⁾، هذا النسب الذي ظل متعارفا عليه بالمغرب الإسلامي و لم يكن يُسمح لأي كان بالظعن فيه، بل أن عبد الرحمن بن خلدون اعتبر الطاعن فيه من اللغو فقد كانوا حسبه -أي بيت الشريف العلوي- في قوله: "لا يدافعون في

(1)-المجموع، ورقة 51.

(2)-نفسه، ورقة 51.

(3)-نفسه، ورقة 50.

(4)-نفسه:ورقة 3.

(5)-نفسه:ورقة 3.

(6)- نفسه :ورقة 11.

(7)-المجموع، ورقة 4؛ حول نزول الحموديين من الأندلس إلى المغرب عقب مبايعة أهل مليلة لشريف محمد المستعلي سنة 459هـ، أنظر عبد الرحمن بن خلدون: العبر و ديوان المبتدأ و

الخبر في أيام العرب و العزم و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج4، دار الكتاب اللبناني، 1986، ص 335.

(8)-المجموع: ورقة 5.

(9)-نفسه :ورقة 5؛ الشائع في جل المصادر العهد الزياني أن تاريخ مولد أبي عبد الله محمد الشريف سنة 710هـ، وليس 716هـ كما ورد في المجموع، وهي من أخطاء الناسخ، فقد أخبر

الشريف العلوي ابن خلدون بمولده سنة 710هـ. ابن خلدون: رحلته غربا وشرقا، ص 106.

نسبهم و ربما يغمز فيه بعض الفجرة ممن لا يزرعه دينه و لا معرفته بالأنساب فيعد من اللغو و لا يلتفت إليه " (1) ، لذلك أصل حفيده أحمد بن أبي يحيى عبد الرحمن ت 895هـ لفكرة الشرف و الشرفاء من كتاب الغنية لأبي الفضل عياض مدعماً موقفه و انتفاء بيتهم إلى الشرفاء بالحديث النبوي "معرفة آل البيت براءة من النار و حب آل محمد جواز على الصراط و الولاية لآل محمد أمار من العذاب" (2)

8-النشاط الديني والعلمي لبيت الشريف العلوي بتلمسان:

تعتبر المعلومات الواردة في المخطوط حول النشاط الديني والعلمي لأبي عبد الله الشريف العلوي وولديه أبي عبد الله وأبي يحيى غنية وثمينة كون الكثير من الأخبار حول هؤلاء لا تتوفر في المصادر الزيرية المغربية المعاصرة لهم وإن توفرت فهي ليست بنفس التفاصيل التي أوردها أحمد بن أبي يحيى ت 895هـ، فيها جاء التركيز كثيراً على المكانة العلمية لأبي عبد الله الشريف العلوي.

أشيوخه و علومه :

تدل المعلومات الواردة في المخطوط أن منزلة أبي عبد الله الشريف العلوي (710-771هـ) الدينية والعلمية قد ارتبطت مصيرها بالمشيخة العلمية التلمسانية التي درس عليها والتي كان قد ذاع صيتها في الغرب الإسلامي خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجري 14م.

فقد عاش في "حجر العفة و الصون" (3) مما سمح له بمزاولة دراسته تحت رعاية خاله الشيخ الصالح أبي محمد عبد الكريم بن عبد الكريم الذي "فارس فيه النجابة وكان يحبه حبا شديدا" (4) لذلك تخير له من هذه المشيخة التلمسانية كلاً من الشيخ الصالح المبارك أبي زيد عبد الرحمن بن يعقوب الذي أقرأه القرآن .. "في أسرع وقت وجود حفظه" (5) ولما بلغ من العمر إحدى عشرة سنة (ابتداء الإقراء فأخذ عن الشيخين الإمامين أبي زيد عبد الرحمن ت 743هـ وأخيه أبي موسى عيسى ت 749هـ ، "وكانوا من جلة العلماء وبقية من السلف العظام... فاستفاد منهم وانتفع" (6)

كما أخذ كذلك في بدايته عن بقية صالحة من أشياخ بلده، وغيرهم ممن قدم عليها كالفقيه الإمام القاضي أبي عبد الله محمد بن هدية القرشي والولي الصالح العالم أبي محمد عبد الله المجاصي والقاضي أبي عبد الله محمد بن أبي عمر التميمي وأبي عبد الله محمد بن محمد البروني وأبي موسى عمران الشاذلي والقاضي أبي عبد الله محمد بن عبد النور والشيخ القاضي أبي العباس أحمد بن الحسين والقاضي أبي الحسن علي بن الرماح وأبي عبد الله محمد بن النجار المنجم" (7).

ورغم أن حفيده أحمد بن يحيى ت 895هـ لم يخبرنا حول نوع العلوم التي تلقاها عن هؤلاء لكن باعه في الفقه وتفسير القرآن وعلومه والحديث وأصول الدين واللغة والأدب والتاريخ والمذاهب والتصوف تكشف عديد العلوم التقليدية التي اكتسبها من شيوخه، إلا أنه يميل إلى التركيز على الأثر العلمي الكبير الذي خلفه ابنا الإمام علي الشريف العلوي في هذه المرحلة الأولى من تعليمه في قوله: "استفاد منهم وانتفع وطلع في فلهم بدره وانشرح للعلم فيه صدره وقوى فيه أمره فكانت تكثفه تحفظ وألفاظه تلتقط" (8) لذلك صار "الطلبة يأتونه ألواحهم وينتظرون خروجه من السوالة فيفسرها لهم" (9).

(1) - رحلته غرباً و شرقاً ، ص 105.

(2) - المجموع ورقة 4.

(3) - نفسه، ورقة 5.

(4) - نفسه، ورقة 5.

(5) - نفسه، ورقة 5، 7.

(6) - نفسه، ورقة 6، 6.

(7) - المجموع ، ورقة 6.

(8) - نفسه، ورقة 6.

(9) - نفسه، ورقة 6.

ورغم أنه كان لا يزال طالبا للعلم إلا أنه لقي الاحترام والتبجيل من قبل شيوخه فقد كان "كلهم يُعظمه ويُجله ويثني عليه ويشهد له بالعقل الوافر والذهن الحاضر وفك المشكل وحل المقتل وإيضاح الجمل" (1)(52) بل أن القاضي أبا علي منصور بن هدية القرشي (الابن) خصه يقول "كل فقيه في زماننا هذا أخذ ما قدر له من العلم ووفق إلا أبو عبد الله الحسيني فإن اجتهاده يزيد" (2)

كما صور لنا حفيده أيضا رحلته إلى بجاية وتونس سنة 740هـ ، وكيف كان يكتب شيخه ابني الإمام بشأن محاورته مع علماء بجاية حول كتابة ابن الحاجب التي أعجب بها واستحسنها "وصارت عندهم أُخْبِيَاثٌ يخبرون بها من أذعن معرفة ذلك الكتاب" (3)

ولما عاد إلى تلمسان "عظم قدره وأقر العلوم مع أشياخه... وأقبل عليه الطلبة" (4) وكل ذلك قبل لقائه وقراءته على أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي ت 757هـ وبهذا يكون حفيده قد اعتبر مرحلة ما قبل لقاء الشريف العلوي بالآبلي مرحلة لتكوينه في العلوم العقلية بينما تمثل المرحلة الثانية من تكوينه على يد الآبلي في تلمسان مرحلة للعلوم العقلية.

ب- لقاء الشريف العلوي بالآبلي:

جعل أحمد بن أبي يحيى ت 895هـ من هذا اللقاء فصلا مهما في المسار الديني والعلمي للشريف العلوي بل وللحياة الدينية والفكرية بتلمسان إجمالا، فاعتنى بحدث عودة الآبلي من المشرق وما اكتسبه في هذه الرحلة من لقاءات جمعته بأهل العلم في الآفاق، فقد دخل العراق و لقي من كان به من العلماء وأخذ عنهم وحصل البغية منهم" (5) على حد تعبيره .

غير أن هذا الخبر اختلفت بشأنه المصادر المعاصرة للآبلي في القرن 8/14م . فبينما تنهض رواية يحيى بن خلدون ت 780هـ متطابقة مع رواية أحمد بن أبي يحيى ت 895هـ ، في كون الآبلي قد دخل العراق و لقي به وبغيره من بلاد المشرق العلماء وأخذ عنهم وعاد إلى تلمسان (6) تنهض رواية عبد الرحمن بن خلدون قتيضا صريحا كونه استقى أخبار هذه الرحلة عن شيخه الآبلي مباشرة في أثناء التلقي عليه قد خالفها الرأي وأورد بأن شراب الكافور الذي اغترفه الآبلي على متن السفينة حياء من شدة الغلظة بالاسكندرية قد أذهب عقله ولم يعد يميز وأخبره بأنه استمر به الحال كذلك في مصر- والعراق والحجاز إلى حين عودته إلى تلمسان وكل ذلك صورته في قوله: "وقدم الديار المصرية على تلك الحال وبها يومئذ تقي الدين بن دقيق العيد وابن الرفعة وصفي الدين الهندي والتبريزي وابن البديع وغيرهم من فرسان المعقول والمنقول فلم يكن قصاره إلا تمييز أشخاصهم إذا ذكرهم لنا لما كان به من الاختلاط" (7)

و لا ريب في أن رواية عبد الرحمن بن خلدون تطرح عديد الأسئلة تصب في خانة التستر والتكتم على تجربة شيخه الآبلي في هذه المرحلة والتي لا يناسب البحث في الخوض فيها إلا من باب أن المقارنة بين هذه الروايات ما هي سوى التأكيد على أن حفيد الشريف العلوي أحمد بن أبي يحيى ت 895هـ قد أعطى لعودة الآبلي من المشرق أهمية كبيرة ، ثم إنه لم يشر- إلى رحلته المهمة كذلك إلى المغرب و التي تلتق أثناءها العلوم العقلية على يد ابن البناء المراكشي ت 721هـ وهي الرحلة التي ارتقت بالآبلي إلى مصاف شيخ المغرب الإسلامي في العلوم العقلية في عصره ، فقد وصف عبد الرحمن بن خلدون هذا اللقاء في قوله: " و نزل على الإمام أبي العباس بن البنا شيخ المعقول و المنقول و المرز في التصوف علما و حالا ، فلزمه و أخذ عنه و تزلع من علم المعقول و التعاليم و الحكم... وورث مقامه فيها و ارفع" (8)

لقد كان من شأن هذا اللقاء أن صب ابن البناء المراكشي ت 721هـ في الآبلي "كيفية التوفيق بين الثقافة العقلية و الثقافة النقلية و في توظيف المنطق بتصوراته و تصديقاته و براهينه لضبط قوانين البلاغة العربية وكذلك الرياضيات و خصوصا نظرية التناسب في البلاغة و في التوحيد و التصوف و بمعنى أدق توظيف الآليات المنطقية و الرياضية لضبط التأويل تفاديا للفرقة و نشدانا لتوحيد العقيدة و المذهب و الطريقة" (9)

(1) نفسه، ورقة 11.

(2) نفسه، ورقة 10.

(3) نفسه، ورقة 7.

(4) نفسه، ورقة 6.

(5) المجموع، ورقة 11.

(6) بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تقديم و تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ص 120.

(7) رحلته غربا و شرقا، ص 81.

(8) - رحلته غربا و شرقا: ص 814.

(9) محمد مفتاح: كتابة التاريخ بين الفطريات و المحيطات، (ضمن كتابة التواريخ)، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الرباط المغرب، 1999، ص 17.

ورغم ذلك يبقى نص أحمد بن أبي يحيى ت 895هـ محمداً و نادراً على صعيد التعريف بالآبلي والكيفية التي درس بها الشريف العلوي عليه، رغم عدم الإشارة إلى رحلة الآبلي إلى ابن البناء .

فقد بين لنا الكيفية التي جعل بها الآبلي تلميذه الشريف العلوي صاحب موسوعة علمية ، "جامعا لكثير من العلوم العقلية والنقلية القديمة والحديثة... ماثلا إلى النظر والحجة أصوليا متكلميا وعالما بأيام الله جاريا على نهج السلف" (1) كما أشاد بطريقة الشريف العلوي و حسن استفادته من الآبلي في قوله: "أخذه.. بكتي يديه واقطع له وأقطع له حتى أشرب صفوه وأورد شأوه فانتفع به انتفاعا عظيما وأخذ عنه علما جليلا... كان يقرأ عليه أولا مع الناس ثم رجع يقرأ عليه مع خواص أصحابه ثم اقطع معه وأغلق عليه بابه وبقي من ذلك مدة ثم خرج أبو عبد الله وقد سكن قلقه واطمأنت إلى العلم نفسه" (2).

وقد أدرك الآبلي نجاة تلميذه الشريف العلوي فكان "يحبه ويثني عليه ويعظمه ويقول اقرأ على خلق كثير في الآفاق فما رأيت مثل أربعة وأبو عبد الله أكثرهم تحصيلا وأوفرهم عقلا" (3) ، لذلك سمح له بإقراء الطلبة بمحضره ، وهذا دليل على أن أبا عبد الله الشريف العلوي قد جلس على كرسي الآبلية وشيخه لا يزال حيا وفي نصوص أخرى يكشف لنا حفيده كذلك عن حجم الموسوعية في العلوم العقلية التي كان أبو عبد الله الشريف قد استوعبها عن ابني الإمام ومحمد بن النجار المنجم والآبلي، لقد جعل منه هؤلاء: "عالما بالعلوم العقلية كلها إماما فيها عالما بالمنطق والحساب والفرائض والهندسة والهيئة ومعرفة آلات التنجيم والمساحة وعلم الموسيقى وعلم الطب والتشريع والفلاحة وكثير من العلوم القديمة والحديثة" (4).

وإلى جانب ذلك يلفت حفيده نظرنا أيضا إلى أن اعتناؤه بالطلبة وبث العلم في الصدور وإخراج الناس من الظلمات إلى النور كان من أولوياته، مما جعله قليل الإقبال على التأليف وحسبنا من مؤلفاته القليلة "شرح على جمل الخونجي" في المنطق، وكتاب "المغالطات" (5) ، الذي ورد كذلك بعنوان "مثار الغلط في الفقه" (6) ، وتأليف في الحديث اقتضبه من الصحاح (7) ، وكتاب القضاء والقدر الذي أجاد إيراده وإصداره وقدر الحق مقداره واقتدر على التعبير عن تلك العلوم الغامضة والمعاني الرقيقة بالكلام الجزيل الفصيح والألفاظ الرشيقية (8) ، بالإضافة إلى كتابه "مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول" ، وكُتِبَ نظره في التفسير (9) .

ورغم أن حفيده لم يسعفنا بنصوص من هذه المؤلفات لكنه أفادنا بالأثر الذي خلفته، وحسبنا أن كتابه في شرح جمل الخونجي "إعنتى به اعتناء عظيما وانتفع به العلماء وأكب الطلبة في الآفاق على قراءته ونسخه والانتفاع به فكثرت وانتشر وعُول عليه ورجع إليه" (10) . كما أن تكوينه على يد شيوخ كبار العلوم النقلية كما أسلفنا أمثال: محمد بن هدية ومحمد المجاصي وأبي عمرو التميمي ومحمد البروني ومحمد بن عبد النور وعلي بن الرماح ، وابني الإمام قد جعل منه كذلك من أبرز علماء العلوم النقلية في زمنه. فقد فسر القرآن في خمس وعشرين سنة (11) وتحول إلى إمام وقته في فهم الحديث وغريبه ومشكله ومختلفه وصحيحه و عليه وحفظ رجاله ومتمونه وجميع أنواع علومه (12).

(1) المجموع: ورقة 6، 7.

(2) نفسه، ورقة 7.

(3) نفسه، ورقة 7.

(4) المجموع، ورقة 27.

(5) نفسه، ورقة 27.

(6) نفسه، ورقة 31.

(7) نفسه، ورقة 60.

(8) نفسه، ورقة 20.

(9) نفسه، ورقة 61.

(10) نفسه، ورقة 27.

(11) نفسه، ورقة 11.

(12) نفسه، ورقة 11.

وكذلك نبغ في علم اللغة "فكان أعلم الناس باللسان العربي وأجمعهم لعلومه محصلا للأدب، عربيا نحويا وكان في البيان آية من آيات الله محصلا لبدائعه مهذا لشرائعه... حافظا للغة... والشعر والمثل وأخبار الناس ومذاهب الأمم عارفا بأخبار الملوك وتنقل الدول وأيام العرب وسيرها وحروبها ومقاتل فرسانها، ذاكرا لأخبار الصالحين وسيرهم وأخبار الصوفية ومذاهبهم وإشاراتهم"⁽¹⁾.

أما في الفقه وأصول الدين فقد صنفه حفيده من "الأئمة الفقهاء المالكية ومجتهدهم.. قائما على الفروع والأصول والتثبت والتحصيل عالما بالأحكام واستنباطها قوي الترجيح شديد النظر متورعا في الفتوى متحررا"⁽²⁾، وخصوصا في أمور الطلاق وكثيرا ما كان يدفع الفتوى عن نفسه، أما في أصول الدين فقد كان "قائما بالحجة بصيرا بالبرهان وعلومه صحيح النظر كثير الذب على أهل السنة والنظر لأهل الحق عارفا لمذاهب الفرق وحجة الخصوم قويا على الشبهة وإبطالها وإزاحة أشكالها... كثير التمسك بالسلف في كتم أسرارها وحفظ مهابتها وأغوارها حسن البسط في تواليها"⁽³⁾ ومن ذلك كتابه مفتاح الأصول في بناء الفروع على الأصول "طبق فيه المسائل الفقهية مع الأصول فاتقن فيه بما بهر العقول"⁽⁴⁾.

ج- دور الشريف العلوي في تربية وتعليم ولديه (أبي محمد عبد الله و أبي يحيى عبد الرحمن)

يتضمن المخطوط كذلك نصوصا وفيرة حول جهود أبي عبد الله الشريف العلوي في تربية وتعليم ولديه بتلمسان وإفريقية و فاس، فكانت تجربته الأولى مع ابنه البكر أبي محمد عبد الله الغريق حيث أشرف على تدريسه بفاس في فترة تواجده بها خادما عند السلطان أبي عنان فارس بين 753هـ-759هـ، و اختار له لتعليمه وتكوينه من الشيوخ الفاسيين كلا من : الشيخ محمد بن براء الذي لقنه القرآن و النحو كتاب الزجاجي وألفية ابن مالك و الشيخ أبو عبد الله محمد حياة الذي درس عليه جمل الزجاجي والمقرب لابن عصفور ،وسيبيويه، فضلا على كتاب البخاري عن محمد بن مرزوق التلمساني⁽⁵⁾.

ويبدو أن أبا محمد عبد الله الغريق كانت له رحلة إلى إفريقية أخذ خلالها كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب ورسالة ابن أبي زيد، والكيفية في أصول الدين عن أبي العباس القباب، وكتاب ابن الحاجب الفرعي عن أبي العباس الشجاع، بالإضافة إلى كتب موطأ الإمام مالك ، والتهذيب والحاجب الفرعي عن أبي العباس أحمد بن الحسن⁽⁶⁾، ومن هنا يكون تكوينه القاعدي قد حدث بفاس وإفريقية و اقتصر- فيه على النحو والفقه والقرآن والحديث، بينما تكوينه المتين كان بتلمسان على يد والده أبي عبد الله حيث يمثل ذلك انخراطه في فلك المدرسة الآبلية، فقد لقنه من كتب الأصوليين المتأخرين: كتاب الاقتصاد في الاعتقاد، وشفاء الغليل والمقاصد وميزان العمل للغزالي، والحصل لفخر الدين الرازي وكتابه مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول، والنجاة والطبيعات والالهيات من كتاب الإشارات لابن سينا، وكتاب التلخيص في الجدل المقترح للهروري، و الهندسة من كتاب اقليدس، والمنطق من خلال جمل الخونجي والتي قرأها وشرحها عديد المرات، فضلا على كتاب مطالع الأنوار لسراج الدين الأموي.

كما سمع منه كتاب البخاري وكتاب مسلم بروايته عن أشياخه الحجازيين وغيرهم ، ناهيك على الأحكام الصغرى في الفقه لعبد الحق الاشبيلي، والسيرة لابن إسحاق، و كتاب الشفا للقاضي عياض، و في تفسير القرآن أقرأه على كنبه ليلا وكان يباحثه في مظاهرها⁽⁷⁾.

أما ابنه الأصغر أبو يحيى عبد الرحمن فقد "اعتنى به اعتناء عظيما وجد في تربيته وتعليمه ... وكان يضجعه على ساعده كل ليلة ويلقنه ذكرا يذكره حتى ينام"⁽⁸⁾.

و بعد تحفيظه للقرآن الكريم رتب له كتبها حفظها مثل كتاب التقصي لأحاديث موطأ الإمام مالك وألف له في الحديث تأليفا في الصحاح، كما درسه من كتب محمد بن أبي بكر بن بزي التلمساني ت 681هـ كتابه في القراءات⁽¹⁾ وكتاب عمدة الحافظ لابن مالك، وكتاب

(1) المجموع، ورقة 26.

(2) نفسه، ورقة 26.

(3) نفسه، ورقة 27.

(4) نفسه، ورقة 26.

(5) نفسه: ورقة 53.

(6) المجموع، ورقة 53.

(7) نفسه، ورقة 54.

(8) نفسه، ورقة 54.

ابن الحاجب وكتابه مئارات الغلط وكتاب السيرة لابن اسحاق وكتاب موطن مالكا، والشفاء للقاضي عياض وفي التصوف شرح أساء الله الحسنى للششيري⁽²⁾ و إلى جانب ذلك بث فيه أسلوبه وطريقته في فهم العلوم و تفسيرها "من الحقائق والثكت و المزاي...مامكنه من مفاتيح كنوزه وأطلعه على الأسرار ورشحه لمعارج الرتب...واستوى على سواء السبيل ونهج الطريق"⁽³⁾

د-جهود أبي محمد عبد الله الغريق في تعليم أخيه أبي يحيى عبد الرحمن

تظهر نصوص المخطوط أن أبا يحيى عبد الرحمن قد لزم مجلس أخيه أبي محمد عبد الله بالمدرسة يعقوبية بعد وفاة والده أبي عبد الله الشريف وأخذ عنه واستفاد من علومه " وقرأ عليه كتباً كثيرة منها في علم النحو كتاب عمدة المحافظ لابن مالك ، وكتاب الإيضاح لأبي علي وكتاب أبي القاسم الزجاجي وتسهيل الفوائد وتكميل المقاصد لابن مالك وكتاب المقرب لابن عصفور و الجزولية في الإعراب وأعرب عليه جملة صالحة من كتاب الله العزيز ، وفي الحديث كتاب الأحكام الصغرى لعبد الحق وختم عليه رسالة بن أبي زيد وقرأ عليه في الأصول كتاب ابن الحاجب وكتاب الساعاتي للحنفية والتنقيح للقراقي، والمعلم الفقهية للإمام فخر الدين الرازي، والاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي والإرشاد لإمام الحرمين وفي الجدل كتاب المقترح للهروي، وفي المنطق جمل الخونجي، وشرح الجمل لأبيه أبي عبد الله الشريف، ومطالع الأنوار لسراج الدين الأمعري وفي البيان كتاب إيضاح الجلال وكتاب تلخيص المفتاح وفي الحساب كتاب تلخيص ابن البنا وفي الهندسة ثمان مقالات من كتاب اقليدس وفي الهيئة ابن الهيثم والريحاني⁽⁴⁾.

ولما كان الشيخ العالم سعيد بن محمد العقباني أحد أعمدة المدرسة يعقوبية في التفسير والفقه فقد أخذ عنه كتاب ابن الحاجب والإيضاح للفاسي وجمل الخونجي وحضر تفسيره للقرآن⁽⁵⁾ فضلا على انتفاعه في علم اللسان عن أبي عبد الله محمد بن حياتي الغرناطي حيث أخذ عليه جمل الزجاجي وختم عليه مقرب ابن عصفور وتسهيل الفوائد ولب الألباب لابن مالك وكتاب سيبويه⁽⁶⁾، وفي علم الحديث أخذ كتاب مسلم بن حجاج وكتاب الشفا للقاضي أبي الفضل ، عن الفقيه العالم أبي القاسم بن رضوان⁽⁷⁾.

ه-النشاط العلمي لأبي محمد عبد الله الغريق وأخيه أبي يحيى عبد الرحمن:

بعد وفاة أبي عبد الله الشريف العلوي قام بالدرس بالمدرسة يعقوبية ابنه عبد الله الغريق الذي درس بهذه المدرسة برسمه ورسم أبيه، فتقاطر عليه الطلبة من الآفاق وخصوصا البجائيين منهم⁽⁸⁾، وكان توزيع مواد تدريسه على النحو التالي:

من الصبح إلى قرب الزوال يقرأ الطلبة القرآن الأحكام الصغرى لعبد الحق الاشبيلي، وفي فصل الصيف كان يقرأ العلوم العقلية وأصول الفقه والبيان والعربية وسائر العلوم ، فكان (يقطع جميع نهاره في ذلك، لا يفتر عن الإقراء غالبا إلا في أوقات الصلاة)⁽⁹⁾ ، وكان الطلبة يردون عليه طائفة بعد طائفة، ولما ضاق عليهم الوقت وتشاحوا فيه فالتقسوا الزمان بالرملية⁽¹⁰⁾ ، وقد لفت المؤلف نظرنا إلى أن التوافد الكبير على المدرسة لم يكن من أجل القراءة وحسب ولكن لقوة مرتبها⁽¹¹⁾ ، لذلك أمر السلطان (باختيار الطلبة وتمييز أهل النجابة منهم فكان اختيارهم يتم في حضرته، وبحضور شيوخ المدرسة يعقوبية وكان من بينهم الفقيه القاضي الخطيب سعيد العقباني⁽¹²⁾ ، ثم إن السلطان لما سمع من علم

(1) حول مؤلفات محمد بن أبي بكر بن بري التلمساني. أنظر محمد بن عبد الملك المراكشي: الذيل و التكملة لكتاني الموصول و الصلة ، القسم الأول، (السفر الثامن)، تحقيق محمد بن شريفة ، ط 1 ، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، 1984 ، ص 280.

(2) نفسه، ورقة 59.

(3) نفسه، ورقة 60.

(4) المجموع، ورقة 60-61.

(5) نفسه، ورقة 61.

(6) نفسه، ورقة 61.

(7) نفسه، ورقة 62.

(8) المجموع، ورقة 55.

(9) نفسه، ورقة 55.

(10) نفسه، ورقة 55.

(11) نفسه، ورقة 55.

(12) نفسه، ورقة 55.

أبي محمد عبد الله بالمدرسة أمره بالشروع في دروس التفسير كما كان أبوه من قبله (فقام بعلوم التفسير وسلك سهولة التعبير وتجنب ما لا يصح من الحكايات والأخبار التي يرد عليها النقد والإنكار... واقتبس الأحكام من مآخذها، ورتب الشرائع في مواردها...)⁽¹⁾. وكذلك عايش المؤلف النشاط العلمي لوالده أبي يحيى عبد الرحمن بالمدرسة البيهقيية أيضا ونهل عنه مع جمهور الطلبة الذين كانوا يردون عليه أفواحا كهولا وأحداثا يقتبسون منه سائر أنواع العلوم فيجدون عنده البغية)⁽²⁾.

فقد كان له في اليوم " ثمانية دول ونحوها، تقرأ كل طائفة ما أرادت من علوم من أصول وعربية وتوحيد "، ولما مرض أخوه أبو محمد عبد الله قدمه للجلوس في مجلسه الذي هو مجلس والده أبي عبد الله الشريف سنة 784هـ، فكان من شأن ذلك أن حافظ على طبيعة المواد التي كانت تقرأ في هذا المجلس في زمن أبيه وأخيه، لذلك كان الأشياخ من طلبة والده الشريف العلوي يحضرون دروسه في الحديث وقراءة الأحكام الصغرى لعبد الحق الاشيلي، كما كانوا يسمعونها من والده من قبل فكانوا " يعجبون بما أتاه الله من ذكاء العقل وسداد النظر وسهولة التعبير، وفصاحة المنطق وحسن الترتيب... وقد سلم من التلجج والتوقف والتعسف والتكلف وسلك نهج أبيه حذوا النعل بالنعل"⁽³⁾.

وقد أضاف عبد الله بن أبي عبد الله محمد الحسيني إلى مخطوط أحمد بن يحيى، جانبا من نشاط أبي يحيى عبد الرحمن في تلقين السلطان أبي زيان محمد من العلوم، فقد اختاره لنفسه النفيسة... ليكون قريبا صالحا وإماما هاديا وحجة قائمة ودليلا مرشدا وأقبل عليه بكلية وصراف وجهه لجهته وفرغ قلبه من غيره وملاه من ينابيع حكيمته فأخذ عليه أصول العلم وفنونه وأسانيده ومتونه وحيله مكنونة وأسس عرفانه... وسهل سبيله وأرشده فأخذ عليه علم التوحيد وأخرجه من دركات التقليد إلى درجات التوحيد ومسكه من البراهين اليقينية والقطعية بالبروة الوثقى والحبل الشديد)⁽⁴⁾ فلقيه كتاب المعالم الدينية للإمام فخر الدين ومن الحديث موطن الإمام مالك تفقها وفي العربية ألفية ابن مالك، والمقرب لابن عصفور وجمل الزجاجي وفي البيان إيضاح الجلال للقزويني (إلى غير ذكر من الكتب وانتفع به انتفاعا عظيما... وظهرت عليه بركة العلم وأنوار الحكمة وانتفع به العلماء والطلبة والصلحاء مشرقا ومغربا واستعانوا به على العلم والعمل)⁽⁵⁾. ومن هنا أصبح السلطان أبو زيان أحمد بوساطة شيخه أبي يحيى عبد الرحمن ضمن فلك الأبلية.

9- مكانة بيت الشريف العلوي العلمية بالغرب الإسلامي:

و إلى جانب النصوص السابقة ورد في المخطوط كذلك من النصوص ما يؤكد على ذبوع شهرة بيت أبي عبد الله الشريف العلوي ت 771هـ العلمية بالغرب الإسلامي، والتي بلغت أوجها في زمنه، فقد كان إلى جانب كونه معلما في شبكة العلماء المنتمين إلى الأبو الأبلية بالمغرب الإسلامي، فإنه كذلك ارتبط في علاقات ثقافية وفكرية بالنخب الكاتبة والعلمة بالغرب الإسلامي رصد لنا حفيده أحمد بن أبي يحيى عبد الرحمن ت 895هـ جانبا مما منها: فقد كان علماء الأندلس على حد وصفه من أعرف الناس بقدره وأكثرهم تعظيما له حتى كان الشيخ العالم الشهير لسان الدين أبو عبد الله محمد بن الخطيب ت 776هـ ذو الأنباء العجيبة و التوالمف البديعة كلما ألف تأليفا بعث به إليه و طلب منه أن يكتب عليه بخطه"⁽⁶⁾ أي كان يطلب من أبي عبد الله الشريف تقيما وتصويبا لأعماله، كما كان فقهاء الأندلس يرسلون إليه المسائل الفقهية ويطلبون الفتوى ورأيه فيها. ومن القرائن أن " الشيخ الإمام المفتي الصدر أبا سعيد فرج بن لب شيخ علماء الأندلس... كلما أشكلت عليه مسألة كاتبه بها وطلب بيان ما أشكل عليه معترفا له بالفضل " ⁽⁷⁾ وقد بعث إليه عند نهاية سنة 769هـ بجملة من الأسئلة في قضايا الإيمان والتقليد في الإفتاء من المدونات المالكية التقليدية، والتي أجاب عليها الشريف العلوي وأحاط بتفاصيلها، ويمكن نعتها إجمالا بالأسئلة الغرناطية والأجوبة التلمسانية⁽⁸⁾. وهي ليست بالمتناقة الفريدة بين الطرفين فقد درج الغرناطيون خلال القرنين 8 و9 الهجريين 15/14

(1) نفسه، ورقة 56.

(2) نفسه، ورقة 61.

(3) المجموع: ورقة 61.

(4) نفسه، ورقة 74، 75.

(5) نفسه، ورقة 75.

(6) نفسه، ورقة 29.

(7) المجموع، ورقة 29.

(8) نفسه: ورقة 29-32.

الميلاديين على الاهتمام بمؤلفات التلمسانيين و أجوبتهم الفقهية و حسبنا من القرائن .اهتمام جيل من الغرناطيين عاشوا في الثلث الأخير من القرن الثامن الهجري /14م و الثلث الأول من القرن التاسع الهجري /15م بمؤلفات شيخه محمد بن منصور بن هدية القرشي التلمساني ت 736هـ⁽¹⁾ فضلا على إرسال أسئلتهم إلى علماء تلمسان وتونس ، يبحثون على أجوبة منها أجوبة ابن مرزوق الحفيد على أسئلة أبي القاسم بن السراج الغرناطي الموسومة بـ (المعراج إلى استمطار فوائد الأستاذ ابن السراج)⁽²⁾ ، وكذلك الأسئلة الغرناطية والأجوبة التونسية التي بعث بها فقيه غرناطة محمد المواق ت 897هـ إلى محمد الرصاع 894هـ⁽³⁾ .وكلها تعكس مدى حضور الثقافة الدينية والأدبية والعلمية لعلماء تلمسان في غرناطة خلال هذه الفترة من عمر العصر الوسيط .

أما حول منزلته ونشاطه في تونس الحفصية والمغرب المرينية فقد أخبرنا حفيده عن رحلة مبكرة قام بها إلى الفضاء الحفصي - سنة 740هـ اطلع فيها على مستوى الحياة الدينية والفكرية واحتك بعلمائها، حيث هاله ازدهار الحياة العلمية في بجاية التي وجد بها " وفرا عظيما من العلماء فجلس مجلسهم وتكلم في مسألة من كتاب ابن الحاجب فقال له بعضهم أن ابن الحاجب عندنا اليوم يقرؤه الصبيان فسألهم فيه أسئلة عجوزا عنها فاشتهر أمره وطار كل مطار ذكره"⁽⁴⁾ .

ولما وصل تونس لزم مجلس العالم الفقيه ابن عبد السلام شارح ابن الحاجب الفرعي فكان يقرأ عليه بداره⁽⁵⁾ وخلالها اندهش ابن عبد السلام من غزارة العلم عند أبي عبد الله الشريف وعلق بقوله: "ما كنت أظن أن في المغرب مثل هذا"⁽⁶⁾ .

كما أعجب به فقيه إفريقية ابن عرفة وخصه بالثناء عند خروجه لتوديعه على عادة علماء المغرب في الخروج لتوديع بعضهم البعض فقال له: " يعز علي أن أفارقك، ولا عرفت غايتك في العلم"⁽⁷⁾ ولما ورد خبر موته إلى تونس قال: "لقد ماتت بموتة العلوم العقلية"⁽⁸⁾ .

ولا شك أن علماء إفريقية قد استكشفوا مدى تفرد أبي عبد الله الشريف في عصره بالعلوم النقلية والعقلية حتى أن ابن مرزوق الخطيب ت 781هـ علق على رحلة أبي عبد الله الشريف إلى تونس لقوله: "أحمد الله على رؤية أهل إفريقية من المغرب"⁽⁹⁾ .

ولم تكن صلواته بالفضاء الحفصي مقتصرة على فقهاء تونس وحسب بل أن تواصله كان أيضا مع تلامذة الأبلي بتونس والتي تمثل الامتداد الفكري والعقلي للمدرسة الأبيلية نحو الشرق.

وحسبنا جملة من الإشكاليات الكلامية والفلسفية بعثها أبو زكريا يحيى الرهوني التوزري أحد تلامذة الأبلي إلى أبي عبد الله الشريف يبحث لها عن تفسير وتوضيح وتتعلق بموضوعاتها بالمستشكلة:

أولا: بقولهم الموجبة تستدعي وجود الموضوع محققا في الخارجية ومقررا في الحقيقة و السالبة لا تستدعيه.
ثانيا: من جانب الفلاسفة ويتعلق بقدم العالم .

ثالثا: أن العلم بوجوده تعالى يتوقف على إبطال التسلسل في الأسباب.

رابعا: بالأدلة وهي راجعة إلى الكلام النفسي - وهو نسبة بين مفردين قائمة بالمتكلم والعلم بالنسبة ضروري ونحن نمنع ضروريته بل صحته"⁽¹⁰⁾ .

(1) من هؤلاء القاضي أبو البركات ابن الحاج والفقيه أبي عبد الله بن يحيى أبو عبد الله محمد بن عبد الملك المنثوري: فهرسة المنثوري، تحقيق محمد بن شريفة، ط1، مركز الدراسات والأبحاث و احياء التراث، الرابطة المحمدية للعلماء، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، 2011، ص378.

(2) أبو العباس أحمد المقرئ: فسخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب و ذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، ج5، تحقيق إحسان عباس ،دار صادر بيروت ، 1988، ص729.

(3) تحقيق محمد حسن، دار المدار الإسلامي، ط1، 2007، ص ص 87، 221.

(4) المجموع: ورقة 7.

(5) المجموع، ورقة 12، 13.

(6) نفسه، ورقة 9.

(7) نفسه: ورقة 10.

(8) نفسه، ورقة 10.

(9) نفسه، ورقة 10.

(10) نفسه، ورقة 21، 23.

وقد أجاب على هذه الاشكالات التي حفظ لنا حفيده أحمد بن أبي يحيى نصوصها الكلامية والفلسفية معلقا على أهميتها في قوله: " فأوضح مشكلها وحل مقفلها وسأتلو عليك بديعها وأوردك مشارعا لتستفيد نكتها وتسمع بلاغتها...وأنت ترى ما فيها من التحقيق والإنصاف ومحاسن الأوصاف..."⁽¹⁾

ولما نقله السلطان المريني أبو عنان من تلمسان إلى حاضرة دولته بفاس قصره سنة 753هـ عاش ظروفًا علمية استثنائية رغم الشروط المادية التي وفرها له حيث أجزل في إكرامه وإكرام أهل بيته، وقد تمخض عن هذه المدة التي قضاها بفاس بين 753هـ-759هـ إلى أن صار صاحب مكانة بين علماء فاس وشيخا لجمهور من الطلبة الذين تكونوا على يديه من الفاسيين و السجلاسيين وغيرهم، كما خصه أبو عنان في مجلسه العلمي بداره إلى جانب القاضي أبي عبد الله محمد المقرئ و أبي عبد الله القشتالي وابن مرزوق الخطيب. فكان هؤلاء يجلونه لعلمه ويحترمونه وحسبنا الاكتفاء برواية ساقها لنا حفيده تعكس منزله بين أقرانه : و مفادها "أن أبا عنان" لما اجتمع لديه علماء المغرب وغيرهم أمر الفقيه العالم الحافظ القاضي أبا عبد الله المقرئ يقرأ التفسير فامتنع عن ذلك وقال أن أبا عبد الله الشريف أحق بذلك مني فقال: له السلطان أنك عالم بعلوم القرآن وأهل تفسيره فاقراه فقال له: أن أبا عبد الله أعلم بذلك مني فلا يسعني أن أقرأ بحضرتة فعجبوا من إنصافه وفسر أبو عبد الله الشريف فحضره كافة علماء المغرب وكان المجلس في دار السلطان فنزل عن سريره ملكه وجلس معهم على الحصير فتعجب أبو عبد الله عن ينبوع من ينابيع الحكمة أدهش به الحاضرين وأتاهم بما لم يحيطوا به حتى قال السلطان عند فراغه أتي لا أرى العلم يخرج من منابت شعره"⁽²⁾.

وإذا كان هذا النص يعكس مدى إعجاب علماء المغرب وفاس بأبي عبد الله الشريف فإن هناك صنف من العلماء الذين كانوا يجسدونه ويسعون للإيقاع به من خلال أسئلة فقهية مفخخة، وكذلك في السعي لإفساد علاقته بالسلطان المريني أبي عنان فضلا عن نماذج آخرين كانوا يتقصون ما يصدر عنه من العلوم والشروح والتوضيحات. و حسبنا من النصوص الواردة في المخطوط والمسيئة إلى الوسط العلمي و الديني بفاس خلال القرن 14هـ/14م.

"أن الفقيه الصالح أبا عمران بن موسى العبدوسي كبير فقهاء الفاسيين كان يبحث عما يصدر عن أبي عبد الله الشريف من تقييد و فتوي فيعده لنفسه"⁽³⁾، ويبدو أن أبا عبد الله الشريف قد تنبه إلى هذه السرقات العلمية وأصبح متحفظا في منح تقييد في التفسير والفقه وغيرها إلى علماء فاس الذين كانوا يطلبونها منه فقد "جاء الفقيه القاضي أبو عبد الله القشتالي يطلب منه ما يصدر عنه من ذلك اليوم -أي من تفسير القرآن في مجلس أبي عنان السابق الذكر- فقال له أنه من كتاب كذا وكذا كتبنا معروفة عندهم فعلم القاضي أن الحسْرَ للشئب وأن الأمر غير مُكْتَسَب"⁽⁴⁾.

ناهيك على نص يعكس سعي "أحد الفقهاء الفاسيين إلى السلطان أبي عنان ممن كان يحسده ونسبه عنده إلى عدم التحرير في الفقه بعث إليه السلطان في الوقت، وحشر إليه فقهاء الفاسيين، فلما حضروا أمره بقراءة قوله صلى الله عليه وسلم: « إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم » الحديث يخبر بذلك قوله في الفقه فأخذه في القراءة من غير نظر ولا توطين فكان من أول ما قال في هذا الحديث خمسة وعشرون فرعا الأول كذا و الثاني كذا وأقبل على سردها ثم على أخذها من الحديث ثم على الترجيح ما رجع منها كأنما كان يملئ من الكتاب فلما رأى السلطان منه ذلك أقبل على الطاعنين فيه وقال لهم: هذا الذي تشيرون إلى قصوره في الفقه وأوسعهم توبيخا"⁽⁵⁾.

والى جانب الوالد كان لولده عبد الله الغريق مجلس في تدريس العلم بفاس، وكانت طريقته في التدريس إذا اختلف الطلبة في مسألة وتشاحنوا فيها أمرهم ... في التقييد فيها وحصر حججهم في معانيها تدريبا من الشيخ لهم واختبارا لما عندهم، وكان يحضر مجلسه كبار الفقهاء يسألون في المشكلات والمعضلات والشيخ يفصل بينهم ويصل بينهم⁽⁶⁾، ولما كان طلبة فاس يعتمدون على الحفظ أي عكس طلبة

(1) المجموع، ورقة 21.

(2) نفسه، ورقة 10.

(3) نفسه، ورقة 10.

(4) المجموع، ورقة 10.

(5) نفسه، ورقة 26.

(6) نفسه، ورقة 53.

تلمسان فقد كانوا يلجؤون إلى اختبار درجة حفظه وصحة ثقاه⁽¹⁾، "وإلى جانب ذلك أيضا كان على طريقة والده ومذهبه في الأبحاث والأظار والأقال والتحقيق والاستبصار"⁽²⁾.

مما جعل مجلسه بالجامع الأعظم بفاس محل توافد العلماء والفقهاء وكبراء الدولة المرينية، و من الذين أعجبوا بعلمه وطريقته في الإلقاء وحسن تديره للطلبة كل من: أبي عبد الله الهاني الأندلسي أحد كبراء الدولة المرينية والفقهاء أبي القاسم بن رضوان رئيس كتبة المغرب، اللذين كانا لهما الفضل في التعريف بأبي عبد الله الغريقي عند السلطان المريني عبد العزيز و السعي في شأن تغطية نفقاته ، حتى أنها أقتعاه بتخصيص مرتب له كان يصله كل شهر⁽³⁾.

ومن هذه الشواهد الوثائقية التي أوردها لنا أحمد بن أبي يحيى ت 895هـ، وقام ابن مريم بتلخيصها يتضح أن المكانة التي وصل إليها بيت الشريف العلوي خلال القرن الثامن الهجري و أثناء الربع الأول من القرن التاسع الهجري في الغرب الإسلامي قد اقترنت بجملة من المعطيات والوقائع و الظروف المختلفة و أهمها : أن انتماء هذا البيت إلى شريحة الشرفاء الحسنين المشهود لهم بالصلة بآل البيت ، جعل أمراء الدولة الزيانية و المرينية يجلسونهم و يكرمونهم بالمرتبات و الهبات و الأعطيات الفلاحية ، فضلا على ما كان يكنه مجتمع المغرب الإسلامي لهذا البيت من التقديس و الاحترام و الولاء⁽⁴⁾.

ثم إن جلوس الشريف العلوي التلمساني على كرسي الأبلية بتلمسان قد جعل منه رأس تيار الأصوليين المتكلمين بالمغرب الأوسط و افريقية و فاس و المنضوين تحت شعار "القرابة العلمية و الأخوة في التلمذة للمشيخة الأبلية"⁽⁵⁾ ، ناهيك على أن جواباته و اجتهادات بنيه في حل المقل من الإشكالات الكلامية و المنطقية و الفقهية صارت ديدن المهتمين في غرناطة و فاس و تونس ، مما ساهم في تفعيل أشكال الثقافة العلمية بين بيئات الغرب الإسلامي .

(1)- نفسه، ورقة 53.

(2)- نفسه، ورقة 54.

(3)- نفسه، ورقة 54.

(4)- المجموع: ورقة 76.77.

(5)- نفسه ، ورقة 21.